أ - العثمانيون والحجاز

مكانة الحجاز لدى سلاطين آل عثمان :

كان للحجاز مكانة خاصة لدي السلاطين العثمانيين ، وكانوا ينتهزون الفرصة للتعبير عن محبتهم ، وإحترامهم لأمراء مكه ، وذلك لإنتسابهم إلي آل البيت . وقد حافظ العثمانيون منذ بدايات ظهورهم على مسرح التاريخ بعلاقات طيبة مع أمراء الحجاز ، ويكفى للتدليل علي ذلك ما قام به السلطان محمد الفاتح ، من مراسلات مع أمير مكة ، عن طريق العالم الجليل الحاج محمد الزيتوني؛ حيث أرسل الفاتح يبشرهم بفتح القسطنطينية ، مرفقًا الهدايا القيمة مع رسائل البشارة ، وما كان من أمير مكة إلا أن أمر بقراءة الرسالة المرسلة أمام الكعبة المشرفة ، وأردف ذلك بالدعاء للسلطان الفاتح ، ورد على هداياه بهدايا آخرى مع نجم الدين السيوطى .

لقد قام الفاتح في رسائله بإخبار شريف مكة بالفتح المبين ، وأنه حوَّل كبرى كنائس القسطنطينية إلي جوامع ، وأن هداياه ما هي إلا تعبير عن حسن المودة ، وطلب الدعاء . ولم يغفل السلطان الفاتح صاحب السيادة على الحجاز آنذاك ؛ وهو السلطان المملوكي ، فخصه برسالة ، وهدايا قيمة هو الآخر ، وتبادلا رسائل التهنئة ، والمودة [1] . وكانوا يحتضنون الأشراف والسادات [2] الذين توطنوا الديار العثمانية ، وسمحوا لهم بإقامة التشكيلات الخاصة بهم ، والتى كان يباشرها نقيب الأشراف [3] أولاً بشكل مستقل ، ثم ألحقوه بالتشكيلات العلمية . وكان هذا المنصب يتوارثه الأبناء عن الأباء .

---

(١) إنظر هذه الرسائل المتبادلة بين الفاتح ، والسلطان المملوكى ، وأمير مكة المكرمة فى كتابنا « استانبول ؛ عبق التاريخ .. وروعة الحضارة ، القاهرة جـ ١ ، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م ص ٣٥ – ٤٨) ، وكذلك ؛ منشآت السلاطين لفريدون بك جـ ١ ، القسطنطينية ١٢٦٤ هـ . ص ٢٣٢ – ٢٦٦ ..

(٢) **الأشراف والسادات** : مصطلح إدارى كان يطلق على أبناء وأحفاد سيدنا الحسن حفيد النبى ﷺ ، أما هؤلاء الذين ينتسبون إلى حضرة الحسين فكان يطلق عليهم السادات . وكان لهم نقيب يطلق عليهم نقيب الأشراف ينظم حياتهم، ويحفظ سجلاتهم . وكانت لهم مخصصات من الدولة ولنقيب الأشراف نواب فى كل الولايات يحلون محله فى حل أمور الأشراف . وكان منهم أمراء مكة المكرمة فى بعض المراحل التاريخية وكان العثمانيون يطلقون على أمير مكه « مكة شريفى » أى شريف مكه . وكان الشريف بركات يتبع إداره مصر عند الفتح العثمانى . وما أن علم بدخول – سليم الأول مصر (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) حتى أرسل اليه إبنه ومعه مفاتيح مكه والمدينة وبعض من الأمانات المقدسة . وبهذا انتقلت إلى الاداره العثمانية . (المترجم) .

(٣) **نقيب الأشراف والسادات** :لقب ومنصب عرفته الحضارة الإسلامية ، ويُطلق على المتولي لأمور المنتسبين إلي آل بيت =

وإذا كان السلاطين العثمانيون قد بسطوا رعايتهم على السادات ، والأشراف وأمَّنوا لهم الحياة الكريمة في مختلف الولايات ، والمقاطعات العثمانية ، ومنحوهم

= رسول الله ﷺ ، من السادات ، والأشراف ، والتثبت من نسبهم ، ويقوم على سجلاتهم ، وتوزيع حصصهم من الغنائم ، وقد كان بمثابة الوصى علي كل المنتسبين إلى آل البيت ، ويثبت مواليدهم ، ويسقط وفاياهم .

ورثه العثمانين عن المماليك ، وأصبح من المناصب الرفيعة فى الدولة العثمانية ، ومكانه فى التشريفات بعد السلطان مباشرة .

ثم الأخذ بهذا النظام منذ عهد بايزيد (١٣٦٠ – ١٤٠٣ م = ٧٦٢ – ٨٠٦هـ) ومنذ عهد بايزيد الثانى (١٤٤٧ – ١٥١٢م = ٨٥١ – ٩١٨هـ) صار يُعيِّن وكيلاً للنقيب ، في الولايات والمقاطعات الأخرى ، ويُطلق عليه « وكيل نقيب الأشراف » .

وقد كان نقيب الأشراف هو الذي يُقلد السلطان سيف السلطنة ، ويقوم بمراسم تتويجه في الإحتفال الذي كان يُقام في مسجد أبي أيوب الأنصاري ، وإعلان السلطان الجديد ، وكان هو الذي يقوم بالدعاء للسلطان في المناسبات الدينية ، وغيرها .

وأول مَنْ عُيِّن في هذا المنصب هو العالم البغدادي الشهير ، سيد على نطاع بن محمد ، وكان تلميذاً للامير البخاري وتولي إلي جانب النظارة على الأشراف ، الإشرافُ علي الزاوية الإسحاقية .. واشترط توارثها فى أبنائه من بعده .

عقب هزيمة أنقره علي يد تيمورلنك ، وتشتت الدولة العثمانية ، ثم حبس سيد على نطاع فترة ، ثم أطلق سراحه ، فذهب إلي الحجاز ، ثم عاد إلي بورصة في زمن السلطان مراد الثاني (١٤٢١ – ١٤٥١ = ٨٢٤ – ٨٥٥هـ) ، واستمر في وظيفتيه السابقتين . وعقب وفاته تولى إبنه سيد زين العابدين نقابة الأشراف .

بعد وفاة سيد زين العابدين ، ظلت هذه الوظيفة شاغرة لمدة ما ، إلى أن وصل (إلي العاصمة سنة ٩٠٠هـ = ١٤٩٤م) **المولا عبد الله القريملي** ، والذى كان استاذاً للسلطان بايزيد ، بعد سياحة طويلة في بلاد العرب ، والعجم ؛ فرشح أحد طلابه ، وهو سيد محمود ، كأول نقيب للأشراف ، وبعده ظل هذا المنصب شاغرًا ، فطالب به الكثير من الأدعياء . وكان سيد محمود هذا هو أول من لُقِّب بلقب « نقيب أشراف مصر ، وسوريا ، والبلاد العربية » أيضاً .

ومن هذا المنطلق ، ولما بدأت الدولة هي التى تعين نقيب الأشراف ، كان وفقًا للمراسم والتشريفات ؛ يفد النقيب الجديد إلى الباب العالي لتقديم واجب الشكر ، وبعد مدة من الانتظار ، يصطحبه التشريفاتي إلى مقام الصدر الأعظم ، الذى يستقبله واقفًا ، ويقوم النقيب بدوره بتقبيل أطراف ثوب الصدر الأعظم ، ويتم الإنعام عليه بفراء السمور ، للوفاء بمهام وظيفته ...

كان الشعبُ يطلق على السادات ، والأشراف لقب « أمير » وعلى عمامتهم « الخضراء ، عمامة الأمير ، .. وكان نقيب الأشراف ، والسادات ، والاشراف يلبسون هذه العمامة الخضراء الخاصة بهم .

كما كان نقيب الأشراف ، هو الذي يفض فى المنازعات ، ويقضى فيما بينهم ، وكانت لهم سجونهم الخاصة بهم ، يتولاها باشجاويش نقيب الأشراف ، وقبل المحاكمة لابد ، أن يخلع إشارة السادات ، والأشراف وهي العمامة الخضراء ، ولا يُعدم أي منهم أو يجلد إلا بامر من النقيب .

ويأتي بعد نقيب الأشراف الـ « عَلَمْدار » أي حامل العلم ، وصاحبه ، وهو أيضًا من الأشراف الذين مُنحوا هذا اللقب . وهو المكلف بحمل « الصنجق الشريف » ومرافقة الجيش به عند الخروج إلي الحرب . ولابد ان يُشارك كل السادات ، والأشراف فى موكب خروج وعودة « الصنجق الشريف » من وإلي القصر ، بعد العودة من الحرب . وكانوا يكبِّرون ، ويهللون ويصلون على النبى ، وهم يسيرون خلف العلم النبوي الشريف وحوله .

كان السلطان يستقبل نقيب الأشراف في مراسم المعايدة واقفًا ، وسط تصفيق جاويشية الديوان . « انظر ؛ الدارة ، العدد الرابع ، السنة الثامنة ، رجب سنة ١٤٠٣ هـ = ابريل ١٩٨٣م » أو Mekke-i Mükerreme Emirleri , Ord. prof. I. Hakki uzunçarsili, Ank. 1972 - s, 9 - 12.) (المترجم) .

البـراءات المؤيدة لـذلك . حـتى أن السلطان مـراد الثـاني (١٤٢١ – ١٤٥١م) كـان يُسلم بيديه سنويًا ألف فيلورى ذهبًا لآل بيت النبي ﷺ في كل مدينة ، أو قَصَبة . وقد ظلت هذه عادة متبعة لدي بعض السلاطين ، يراعونها ، ولا يتخلفون عن الوفاء بها .

ولم يغب سكان مكة والمدينة عن بال السـلاطين العـثـمـانيين ، فكان السلطان يلديريم بايزيد (١٣٨٩ – ١٤٠٢م = ٧٩٢ – ٨٠٥هـ) وإبنه السلطان محـمـد چلبي من أوائل من أرسلوا الصرة [١] إلي أهل الحجاز . وبعد ذلك قام السلطان مراد الثاني – طوال مدة حكمه – بإرسال صرة نقدية تبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة فيلورى . ذهبًا إلي كل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقـدس الشـريف ، وخليل الرحمن. وكانت الصرة التي أُرسلت في سنة (٨٥٥هـ = ١٤٥١م) مقدارها ٨٠١ كيسة ذهبية [٢] . كما أن نفس السلطان قد أوقف حاصلات قرى منطقة « باليق حصارى » أي قلعة باليق من آعمال آنقره علي مكة المكرمة [٣] ، وكذلك أوقف في وصيته المؤرخة بآواخر رجب سنة ٨٥٠هـ = سبتمبر سنة ١٤٤٦م مبلغًا وقدره ٣٥٠٠ ثلاثة آلاف وخمسمائة فيلورى ذهبًا [٤] ؛ لكل من مكة ، والمدينة ، ولكي يُوزع هذا المبلغ على فقراء المدينتين .. [٥] .

ولا تحتوى السجلات المهتمة بالأمر ، على السنوات التى أعقبت فتح استانبول ؛ ففي نفس سنة الفتح ، وعدا هدايا الفتح ، أرسل السلطان محمد الفاتح الصرة إلى

---

(١) **الصرة** : « سنفصل عنها القول فى المتن بعد قليل » . وسيكون عنها هامش عند الترجمة (المترجم) .

(٢) **الكيسة** : مصطلح مالى ، يدل على الحافظة التى كانت توضع فيها النقود الذهبيه ، أو الفضيه . وكانت تتغير قيمتها من عصر إلى عصر آخر كان يطلق على العملة التى توضع فى الكيسه إسم الآقجة . وحتى عصر الفاتح كان الفيلورى الذهبى يساوى أربعين آقجة . أول الأمر كان الكيس يساوى ٣٠ ألف أقجة أو ١٠ آلاف دينار ذهب ثم بدأت القيمه تتغير وفقًا للوضع السياسى والاقتصادى للبلاد . (المترجم) .

(٣) عاشق باشا زاده تاريخى ؛ ص ١٩٦ .

(٤) الفـيلورى ؛ Filori ----> Flori ----> Florin – عملة أوروبية سادت لفترات كبيرة فى الدولة العثمانية وكانت قيمتها ذهبية ، وضربت أول الأمر فى فلورنسا فى القرن الحادي عشر الميلادى ، ولقيت رواجًا كبيرًا فى كل دول أوروبا. كانت عبارة عن درهم واحد قيمته أربعون آقجة = « بيضة » ووزنها قيراط . وقد عرفت طريقها إلي الدولة العثمانية منذ عهد محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١م = ٨٥٥ – ٨٨٦هـ) . وكان قيمة الدرهم منها ٤٧ قرشًا و ٣٠ پاره ، وقد عرفته البلاد العربية ، وخاصة فى موسم الحج . انظر ؛ عثمانلى تاريخى – د./ الصفصافى أحمد ؛ تاصيل مسميات السكة العثمانية المستعملة فى الجزيرة العربية إبان العهد العثمانى ،..) المترجم .

(٥) مكة مكرمة أميرلرى . مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ هامش ٦ .

سكان الحرمين الشريفين . وتنتقل المصادر مباشرة بعد ذلك إلي ابنه بايزيد الثاني الذي خصص نصف الصرة إلي المدينة المنورة والنصف الآخر إلى مكة المكرمة ، وكانت فى مجموعها تبلغ أربع عشرة ألف دوقة ذهبية [١] . وكان لابد وأن تصل هذه الصرة إلى مكة المكرمة فى العيد الأضحى . [٢] .

وضاعف السلطان سليم الأول الصرة التى كان يبعث بها والده ، وعقب دخوله إلى مصر ، واستقرار الأمور بها أرسل إلى كلٍ من آشراف مكة خمسمائة دوقة ذهبية، وإلى كل شيخ من مشايخها ست سكات ذهبية . وإلى كل واحد من اعيان المدينة ثلاث دوقات ذهبية ، وتم إحصاء الفقراء الذين خرجوا إلى خارج مكة ، ومُنح لكل منهم دوقة . بحيث وصل مجموع المبالغ التى تم توزيعها . مائتي ألف دوقة ذهبية . هذا عدا الظهيرة التى أرسلت مع الصرة . وكان أول أمين للصرة يُعيّن من قبل سليم الأول سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) هو الأمير مصلح الدين ، وقد أشرف بنفسه ، ومعه قاضيان مصريان على توزيع الصرة على مستحقيها فى كل من المدينتين المقدستين [٣] .

واعتاد العثمانيون ارسال هذه الصرة سنويا إلى اهالى الحرمين الشريفين ، وقد أطلق عليها الأهالي « الصدقات الرومية » [٤] .

---

(١) الدوقة : Dika = Duka عملة كانت تستخدم فى البندقية وفرنسا ، وتسك من الذهب ، والفضة وكانت هى الاكثر رواجًا بين التجار الذين يجوبون الديار العثمانية بالرغم من وجود وتداول العملات التى كان يسكها السلاطين العثمانيين . وكان السلطان اورخان هو اول من سك عملة معدنية عثمانية ، وكُتب على احد وجهيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (اورخان خلد الله ملكه) . وحرص بعده كل سلطان أن يضرب لنفسه عملة خاصة به .. (المترجم) .

(٢) كانت الصرة التى يرسلها بايزيد الثانى كل سنة لتوزع على آهالي الحرمين الشريفين قد نالت استحسان شاعر البطحاء العربي الشيخ شهاب الدين ابن أحمد بن علي المتوفى (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) فقرض قصيدة فى مدح السلطان اسماها (الدر المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم) وقدمها إلى السلطان عندما قدم الشاعر إلى استانبول ، ماستحسنها السلطان ، وأنعم على الشاعر بالف دينار ، وكان يرسل إليه سنويًا مائة دينار انظر قرآت مكة ، مجلد ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١) . المترجم.

(٣) وقد جاء فى تاج التواريخ جـ ٢ ، ص ٣٧١ ، وفى هامر جـ ٤ ص ٢٣٦ ، أن السلطان سليم الأول قد خصص لمكة خمسة آلاف اردب ، وإلى المدينة الفين من الظهيرة ، وكانت هذه الكمية تُزاد وفقًا لزيادة نفوس هاتين المدينتين الشريفتين ، حتى وصلت الكمية الى ١٢ الف اردب إلى مكة ، وثمانية آلاف اردب إلى المدينة وذلك فى منتصف القرن العشرين ، وانها كانت ترسل من أوقاف مصر . انظر امراء مكة المكرمة ص ١٤ .

(٤) أ. د. إسماعيل حقى اوظون چارشيلى ، مكة مكرمة اميرلرى ؛ أنقره ١٩٧٢م ص ١٤ .

ولما دخلت مصر ، وسوريا تحت النفوذ العثماني ، أخذ العثمانيون على عاتقهم المحافظة علي الأوقاف المملوكية التي كانت وَقْفًا علي الحجاز ، وحافظوا على إرسال الصرة المصرية بُكل عاداتها ، ومراسمها ، وطبَّقوها كما هي .. وأضافوا عليها بعض التحسينات ؛ فقد زاد السلطان سليمان القانونى « (١٤٩٥ - ١٥٦٦م = ٩٠٠ - ٩٧٤هـ) مقدار الصرة التي كانت تُبعث من مصر . كما جعل « صدقات الجوالي » أي معظم الجزية التى كانت تؤخذ من غير المسلمين مخصصة لآهالى الحرمين [١] .

وكانت الصرة التي تُرسل من مصر لآهالي الحرمين الشريفين ، والصدقات والغلال ، والظهيرة ، والدشيشة ، تُؤمن من الأوقاف الخيرة الموقوفة على الحرمين الشريفين فى مصر . وكانت القرى المصرية الموقوفة على الحرمين الشريفين تُسمى فى مصر « قرى الدشيشة » [٢] .

كما كانت الصرة تخرج فى استانبول كل عام وسط احتفال مهيب ، يتقبل فيها أمين الصرة الأوامر من السلطان ، ويتقبل الهدايا ، والعطايا المرسلة من الأمراء ، والأميرات ، والوزراء ، ورجالات الدولة ، والأثرياء ، ويتحرك موكب القافلة ، وسط حراسة مشددة من القوات المخصصة والمرافقة للموكب بمجرد أن يسلم السلطان مقود جمل المحمل إلى أمير القافلة ... وقد فصل الرحالة آولياچلبي فى رحلته القول عن هذه المراسم .

* * *

(١) آولياچلبي سياحتنامه س جـ١ ، ص ١٦١ .

(٢) وصلت الكميات المرسلة من مصر من هذه الظهيرة سنة ٩٧٤هـ = ١٥٦٦م ، ٩٧٧هـ = ١٥٦٩م ستة آلاف اردب من القمح ، وحسب سجلات دفاتر الديوان المصرى بلغت ١٩١٦١ اردبًا أى ما يقرب من واحد ونصف مليون كجم . وكانت هذه الكميات تُنقل بالسفن . وكان الأهالى يطلقون على الشوربة التى تُسوى في المدينتين الشريفتين من البولغر مسمى « الدشيشة » . انظر ، امراء مكة المكرمة ص ١٥) المترجم.

دخول الحجاز تحت الإدارة العثمانية:

لقد ظلت إمارة مكة المكرمة فى أيدى آبناء بنى هاشم ، والذين يُطلق عليهم بنى فليطه ، وهم من آبناء ، وأولاد الحسن بن على بن أبى طالب (رضي الله عنهم) حتى نهايات القرن السادس الهجرى ٥٩٧ / ٥٩٩هـ أى الثاني عشر الميلادى ١٢٠٠ / ١٢٠٢ م إلي أن تمكن أمير ينبع أبو عزيز قتاده بن ادريس – وهو بدوره من أولاد الإمام الحسن – من السيطرة عليها ، ولقد بقيت الحجاز تحت سيطرة أولاد ، وأحفاد قتاده إلى أن تمكن الملك عبد العزيز آل سعود من استخلاصها من أيديهم سنة (١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م) .

لم يكن أمير مكة ، وأشرافها ، يتمتعون بالإستقلال الكامل ، بل كانوا دائمًا تحت نفوذ ، وسيطرة الدول التى تتشكل في مصر ، وكانوا يقرأوون الخطبة باسماء حكام هذه الدول .

وخلال إمارة قتاده بن ادريس ، كان الأيوبيون هم أصحاب الكلمة فى مصر ، وسوريا ، واليمن ، ولقد اعترفوا بإدارة الأشراف لمكة والمدينة .. ولما جاء المماليك ، ومن بعدهم العثمانيون اعترفوا بإمارة نفس العائلة على ا لحجاز ، وكانوا يبعثون إليهم بالفرمانات التى تعترف لهم بالإمارة ، وتُصدِّق لهم عليها ...إن وجود الحرمين الشريفين ، وما يُمثلانه بالنسبة للعالم الإسلامي أجمع ، تحت سيطرة هذه الدول ، كان يحمل إلي جانب الأهمية السياسية ، أهمية دينية قصوى .. فقد كان ذلك يمثل نفوذًا ، وإعتباراً معنويًا لا يُستهان به لهذه الدول ، بين شعوب العالم الإسلامي .. ولقد حرص هؤلاء الحكام – وخاصة بعد سليم الأول سنة (١٥١٧م = ٩٢٣هـ) على أن يلقبوا بالخليفة ، لكى يجمعوا بين السلطتين ؛ الدينية – والدنيوية .

وما أن أُشيع أن السلطان سليم الأول قد انتصر فى مرج دابق سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) ، واستولى على الشام ، وفلسطين ، وأنه قد انتصر على ا لمماليك أيضًا فى الريدانية سنة (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) ، وضم مصر إلى الدولة العثمانية ، حتى سارع أمير مكة آنذاك الشريف بركات بن محمد الحسني ، بإرسال نجله الشريف أبو نمي الذي كان لا يزال صبيًا ، لم يتجاوز الثانية عشر بعد ، برفقة سفير يحمل الهدايا ومفاتيح مكة ليعرضها على السلطان العثماني فى مصر ، مقرونة بالتعظيم وخالص الدعاء .

كان مجيئ الشريف أبو نمي بن بركات إلى مصر فى اليوم الثالث عشر من شهر جمادي الآخر سنة (٩٢٣هـ = اغسطس ١٥١٧م) ، فأمر السلطان بحسن استقبال الشريف ، واستضافه في المكان المخصص له [١] وفي السادس عشر من الشهر المذكور حضر أبو نمي إلي مقر إقامة السلطان لتقديم مفاتيح الكعبة والهدايا التى أحضرها معه ، وأخذ مجلسه هو ومَنْ معه ، واستمع إلى ما يدور فى الديوان ، وما أن أنتهت أعمال الديوان ، حتى استقبل السلطان الشريف وسط حفاوة بالغة ، ثم ودَّعه فى موكب لكي يذهب الشريف إلى مقر إقامته ، واستقبله السلطان مرة آخرى في الثاني والعشرين من نفس الشهر وألبسه الخلعة فقبل الشريف يده ، وودعه .

ويذكر ابن اياس أنه [فى يوم الخميس ، الرابع من شهر رجب خرج إلى السفر ابن السَّيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه إلى وطاقه بالريدانية فكان له موكب حافل، وأخلع عليه قفطان تماسيحٌ مذَهبًا ، وقدَّامه الرماة بالنفط ، وخرج في صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد نادى لهم السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج فى صحبته ، وأشيع ان السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضًا عن الباش = (الباشا) الذى كان بها . . وجعله هوالمتصرف فى أمر مكة قاطبة ، واضاف له نظر الحسبة بمكة ايضاً ، وأنصفه غاية الإنصاف ، فتزايدت عظمة الشريف بركات إلي الغاية ، وأكرم ولده غاية الإكرام . .] [٢] .

وهكذا ، يتضح أن أبا نمي قد أُحسن استقباله ، ووداعه ، وأنه عند عودته إلى

---

(١) يذكر حيدر چلبي فى روزنامته أن « وَصَلَ الشريف أبو نُمي ابن الشريف بركات أمير مكة المكرمة فى الثالث عشر من جمادي الآخر سنة (٩٢٣هـ = آغسطس ١٥١٧م) . وأمر الآغوات باستقباله وفى السادس عشر من الشهر المذكور حضر الشريف أبو نمي المذكور إلى الديوان ، وقد شرف بطلعته النورانية ، وكان الصدر الأعظم يونس باشا قد أعد مجلسًا فى المابين وجلس على مقعده مع قضاة العسكر ، ووصل السفير عرّار الذى هو ابن عمه ، فجلس على الكرسي المواجهه ، وبعده عُقد الديوان على الترتيب – وتشرف الشريف بمقابلة الخداوندكار ، فإنسحب علية القوم ، ومَنْ تبقى من آغوات البلوكات ذهبوا إلى دوائرهم ، ومدت الولائم اليومية بدون أي تقصير بحيث كان يُقدم يوميًا من الخراف ثلاثين ، وفى اليوم الثاني والعشرين ، خلع عليه السلطان ، وقام الشريف نمي المذكور وقبل يد الخداوندكار ؛ انظر « منشآت زيدون جـ ١ ص ٤٣٩ ، طبع تقويم خان ، سنة ١٢٦٤ ، بينما ابن إياس يُظهر تاريخ المقابلة سابقًا على التاريخ الذى ذكره حيدرچلبي بيوم واحد) . (المترجم) .

(٢) محمد بن أحمد إياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى جـ ٥ ، القاهرة ١٣٨هـ = ١٩٦١م ص١٩٣ .

مكة ، قد تسلم فرمانًا ، ببقاء والده فى إمارة مكة ، بل واتساع نفوذه ، وإضافة نظر الحسبة إليه أيضًا .

لم يكتف السلطان العثمانى بذلك ؛ بل أرسل مائتي ألف دينارًا ذهبيًا ، لكي توزع على أهالي الحرمين الشريفين ، وكما سبقت الإشارة – أرسل بالسفن عن طريق البحر كمية كبيرة من الظهيرة ، وكلَّف الأمير مصلح الدين ، ومعه اثنين من قضاة مصر بتوزيعها !. [١] وحدَّد المخصصات التى تُرسل من مصر إلي أمير مكة . [٢] وربط معاشه بخزينة مصر .

وهكذا ، دخلت منطقة الحجاز تحت إشراف ، وإدارة الدولة العثمانية ، وتم بعث القضاة إلي الحرمين ، وتم قراءة الخطبة بإسمهم ، وخاصة بعد أن حصلوا على لقب ، ومنصب الخلافة [٣] وكان يُذكر إسم أمير مكة بعد إسم الخليفة ، والسلطان العثماني . وتم تأمين الأمن ، والهدوء فى الحرمين الشريفين عن طريق القوات التى كانت تُرسل سنويا من المعسكرات السبع الخاصة بالإنكشارية فى مصر .

* * *

---

(١) ورد فى خلاصة الكلام فى بيان امراء البلد الحرام ، ص ٥١ ما يلى : « أول ورود حب الصدقة لأهل مكة سنة (٩٢٣) ، ثم وصلت إلى بندر جده مراكب من السويس فيها سبعة آلاف اردب قمح ، وهو أول حب ورد لاهل مكة ، فكتب جميع أهل مكة إلا السوقة ، والتجار ، ووزع عليهم ذلك الحب ، وكان المتولى نظر ذلك الأمير مصلح .... وعمر الأمير مصلح مقام السادة الحنفية ولما فرغ ثم توجه إلى المدينة المنورة لإجراء الصدقات ثم إلى مصر ثم إلي الروم» . انظر ، أمراء مكة المكرمة ، ص ٧٤ هامش (١) . المترجم) .

(٢) آولياچلبي سياحتنامه س ، جـ ١ ص ١٧٧ .

(٣) عند دخول سليم الأول الى مصر ٩٢٣هـ = ١٥١٧م كان الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد ، والأمر والنهي فى الديار المصرية .. ولكن بعد أن استقرت الأمور له ، نقل الخليفة ومَنْ فى معيته إلى استانبول مع الآلاف من الفنيين ، والحرفيين المصريين وخلال المراسم التى تمت فى جامع الآياصوفيا تم التنازل عن لقب الخلافة ، وجُبَتها من قبل آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث ؛ وهكذا أصبح سليم العثماني خليفة للمسلمين ، وجمع بذلك بين السلطة السياسية والدينية فى البلاد . انظر ؛ ابن اياس جـ ٥ حوادث سنة ٩٢٣ هـ . وكذلك ؛ (Osmanli Padisahian Ansiklopedis, C. I. S. 214) (المترجم) .

تعيينات أمراء مكة ومخصصاتهم :

كان بمجرد وفاة أمير مكة ، أو عزله يُصبح مقام الإمارة شاغراً ، وبناءاً عليه يتم إختيار الشريف الجديد من بين الأشراف وبتأييد من قاضي مكة ؛ وولاة كل من مصر ، والشام ، وجده [١] وتقاريرهم ، يصدر السلطان العثمانى فرمان التعيين .

وإذا ما ثارت العصبية ، واختلف الأشراف حول الأمير المنتخب ، كانت الحكومة تفاضل بين واحدٍ من المرشحين الذين تم تزكيتهما من قبل قاضي مكة ، والولاة المشار إليهم . وكانت الصراعات حول هذا المنصب تخلق العديد من القلاقل فى الحجاز ، وصفحات التاريخ تُسجل العديد من المصادمات بين الأشراف ، وبعضهم البعض ، من ناحية ، أو بينهم وبين الدولة العثمانية من ناحية آخرى .

عقب الإستقرار على الأمير المعيَّن ، كانت تُرسل إليه « برائة التعيين » أو « منشور التعيين » أو الفرمان المتضمن لقرار التعيين ، وتحديد مهام الشريف = الأمير الجديد ، واختصاصاته ، ومخصصاته المالية . وخلال القرنين السادس عشر ، والسابع عشر كان الفرمان مختصراً ، ولكن بداية من القرن الثامن عشر كان الفرمان أو المنشور يُكتب بشكل مفصل ، ومنمق . فوق ورق آبادى مذهب ويحمل طغراء السلطان . ويوضع في كيس من الحرير الأخضر ، ثم يُلف ويوضع داخل صندوق إسطوانى من الذهب ، أو الفضة أو أي معدن آخر ، ثم يختم بالشمع ولا يُفتح إلا في الحرم وفى حضور ذوى الإختصاص ؛ من الأشراف ، والقضاة وشيخ الحرم ، وأمير قافلة الحج المصرى ، والشامي ، وقادة الجند ، ووالي الحجاز .

يخرج المنادون إلي الشوارع ، والطرقات ، والمدن الأخرى تنادي بالشريف الجديد ، وتُطلق المدفعية تسع عشرة طلقة فى مكة المكرمة . وبعد قراءة المرسوم في الحرم وسط الحشد الكبير ، تتم بيعة الشريف المختار من طرف بقية الأشراف ، والقضاة ، والعلماء ، وسائر ذوى الإختصاص ، بينما يكون الشريف المختار ، واقف أمام المنبر النبوى ، أو على الدرجة الثالثة من المنبر . [٢]

---

(١) كانت مكة وضواحيها فى العصور الأولى خاضعة لنفوذ ولاة مصر ، ثم اصبح ولاة جده هم أصحاب النفوذ والحكم ، ولما كان ولاة الشام هم أمراء الحج العثمانى فى نفس الوقت ، كان لكل هؤلاء راي ، ووجهة نظر فى اختيار ، وتعيين الشريف – « المترجم » .

(٢) امراء مكة المكرمة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

كانت تُغير النوبة أمام أبواب قصر الأمير كل يوم عند صلاة العصر ، ويذكر إسمه فى الخطبة بعد السلطان ، ودرجته الإدارية تعلو درجة عن الوزراء [١] .

كانت مخصصات الشريف ، والتى تحدد سنويًا من طرف السلطان ، ووالي مصر تُرسل إليه كجائزة للركاب الهمايوني ، [٢] وكذا العطية الهمايونية [٣] وقد استمرت منذ أن أقرها سليم الأول على هذا المنوال ، ثم أُضيف إلي ذلك نصف واردات جمرك بندر جده . [٤] كما كانت هناك مخصصات آخرى تأتي إليه من والي مصر مباشرة ، وعند عزل الشريف ؛ كانت تخصص له أيضًا تعيينات من واردات مصر تحت اسم بدل الإعاشة . وعند العزل ، أو النفى لأى سبب ، كانت الدولة تلتزم بتوفير المسكن ، ومعاش مرضى له ولمن فى معيته . [٥]

* * *

(١) خلاصة الأثر فى تراجم أعيان القرن الحادى عشر ، محمد امين بن فضل الله حموى ، جـ١ ص ٤٤٨ .
(٢) كانت تصل إلى خمسين ألف قرش .
(٣) كانت تصل إلي خمسة آلاف قرش تُرسل سنويًا .
(٤) خلاصة الكلام ، ص ٥٣ .
(٥) امراء مكه ص ٢٤ .

obeikandl.com

بعد أن دخلت منطقة الحجاز تحت النفوذ العثماني ؛ قبل الحكام العثمانيون بنفس الأصول ، والقواعد التى كان يحكم على منوالها الأشراف في العصر المملوكي ، وأبقوا على نفس صلاحياتهم ، ونفوذهم داخل المناطق التابعة لهم ، وأكتفوا فقط بإرسال قوة محافظة ، لحفظ الأمن والهدوء تُرسل من مصر سنويًا ، وتتواجد في كل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة بالتناوب ...

وإذا كان الأشراف قد بذلوا أقصى طاقاتهم ، لوضع هذه القوات المرابطة في مكة ، والمدينة تحت سيطرتهم لما لمسوه فيها من تهديد ، أو تحديد لنفوذهم ، إلا أن القادة العسكريون المرابطون هنالك لم يقبلوا بذلك . وكان كل منهما يحاول التأثير ، أو التقليل من نفوذ الأخر ، بل كان يصل الأمر أحيانًا ، أن يسعى كل منهما لعزل الأخر [1] .

وقد كان الأمراء يحتفظون لأنفسهم بقوات خاصة بهم من البدو ، والآعراب المرتبطين بهم . فقد كان الأشراف يحاولون أن يُبْدَوْنَ كحكام مستقلين بالحجاز ، ولكن بدون عملة خاصة بهم ، وكان خوفهم من بعضهم البعض ، يفوق خوفهم من قوات الدولة العثمانية . [2]

لم يضع العثمانيون قانونًا خاصًا بإدارة الحجاز ، بل كانوا يكتفون بما يتضمنه فرمان التعيين من تحديد للإختصاصات ، ومنح للصلاحيات وما كان يتضمنه المنشور ، أو الفرمان كان عبارة عن مجموعة من التوصيات ، والنصائح ، والتكليفات المحددة ؛ لما يجب عمله تجاه الحجاج ، وضرورة توزيع الصرة ، والظهيرة بشكل يتسم بالعدل ، والمساواة . والتشديد على الحيلولة دون البدو والأعراب ، ونهب أموال الحجيج ، وقوافل التجار . ولم تشغل السلطة المركزية بالها إلا بتأمين طرق قوافل الحج . والتى كانت تعتبره من أولويات مسئولياتها . وقد أشرفت الدولة اشرافًا فعليًا

---

(١) لقد أرسل أمير مكة أبو نمي سفيرًا من طرفه هو قطب الدين المكي لكي يشكو من پيرى قائد قوات المدينة ، إلا ان السلطان سليمان القانوني الذي خشي من إزدياد نفوذ الأمير ، فرد السفير دون أن يعزل قائد حامية المدينة ، أنظر ؛ كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . (المترجم) .

(٢) انظر ، امراء مكة ، سبق ذكره ص ٢٥ .

على الحج ، واعتبرت هذا العمل واجبًا يقع علي عاتقها ، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام ، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه ، فأنشأت الآبار ، وآقامت الحصون ، وشجعت على إقامة الخانات ، وأقامت المخافر ، وكانت تُشرف إشرافًا مباشرًا على قوافل الحج ، التى تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة ؛ وتضع لها قوة تحرسها ، يقودها أحد كبار العسكريين الذى كان يُسمى سردار الحج [١] وكان على رأس كل قافلة أميرٌ للحج يتولى قيادة الجيش وكثيرًا ما كان امير الحج يتولى قيادة الجيش وبخاصة قافلة الحج الشامي . [٢] وتركت للآشراف – فى كثير من الآحيان . الأمر لكي يحلوا مشاكلهم فيما بينهم .. وإذا زادت الأمور عن الحد المسموح به كانت تكلف والي مصر ، أو والي الشام للتدخل ، وحسم الأمر .

ولكن .. لم تر الدولة بدًا من الرقابة ، والمتابعة .. فاستحدثت إمارة سنجق جده ، ثم جعلته مرتبطًا بالحبشة للسيطرة على مداخل البحر الأحمر ، ثم ربطت بين ولاية جده ، والحبش ، ومشيخة الحرم ، للحيلولة دون إنفراد آمراء مكة بالتجار والآهالي .. ولكن هذا بدوره لم يمنع النزاع ، والشقاق الذي كان يطل برأسه من حين لآخر بين قواد جده ، وأمراء مكة [٣] .

ولما كانت منطقة الحجاز بعيدة عن مركز الدولة ؛ فقد ربطت أُموره منذ آواخر القرن السادس عشر بوالى مصر الذى كانت تُخبره بكل ما كانت تصدره بشأن الحجاز ، أو تبعث به إلي الأشراف في مكة . [٤] وكانت في نفس الوقت تُوصي والي جدة ، أو فيما بعد والي الحجاز [٥] بضرورة حسن التعايش مع

---

(١) سردار = سرعسكر ؛ مصطلح عسكرى يعنى رئيس الجيش ، قائد الجيش ، وكان يُطلق على قائد الجيش العثمانى بعد تخلى السلطان عن قيادته . وتلقب قائد الجيش بهذا اللقب بعد إلغاء الإنكشارية ، وإذا ما عيَّنه الصدر الاعظم كان يُسمى « سردار اكرم » ، وكثيرًا ما كان الصدر الاعظم يجمع بين اللقبين إذا ما قاد الجيش بنفسه ، وكان يُطلق عليه آنذاك ؛ « وزيرى آعظم وسردار اكرم » . انظر ؛ محمد ذكى باقآلين ، عثمانلى تاريخ ديملرى وتريملرى ، سوزلكى ، استانبول ، ١٩٧١م . (المترجم)

(٢) الدولة العثمانية والولايات العربية ، د. الصفصافى احمد المرسى ، الدارة ، العدد الرابع ، السنة الثامنة رجب ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م .

(٣) آولياچلبي سياحتنامه س ، مجلد ٥ ص ١٨٦ .

(٤) يحتوى الفرمان المرسل إلى أمير مكة سنة ٩٨٦هـ = ٥٧٨م بضرورة اخبار بكوية مصر بما يدور فى مكة والمدينة أُسوة بما يحدث من إخبار استانبول بنفس الأحداث . « مهمة دفترى ٣٤ ، ص ٣٦٧ .

(٥) ان بندر جده من أهم الموانئ بالنسبة للحجاز عامة ، ومكة خاصة ، تفد إليه السفن التجارية ، وهو الميناء الذى =

الأشراف ، ولم تدخر وسعًا في إقناع الأشراف كذلك بحسن مداراة الولاة والقادة العثمانيين في جده .

وبصرف النظر عن كل هذه النزاعات السياسية ، وتطاحن النفوذ بين الأشراف والولاة ؛ فقد كانت هناك قوة مكونة من حوالي ٥٠٠ إلي ٦٠٠ فرد تعمل جنبًا إلي جنب مع سادة الديوان ، والقلم المخصوص ، أو مدراء التحريرات .. وقبيل نهايات القرن التاسع عشر كان هناك أفندي الديوان « ديوان أفنديسى » وكتبه عربي وكتبة تركي ، ومحاسب ، وأمناء مخازن ، وإمام ، وطبيب ، ومديرًا لأمور الإمارة ، وحُجَّاب خواص ، وحامل علم = صنجقدار ، وأميرًا للأسطبل الأميري ، ومتعهدًا للجمالة ، ومهمندارًا ، ومهتمرباشى = رئيسًا للفرقة الموسيقية ، وفرقة عزف عسكرية ، ومتعهد شماسى ، وكلهم يكونون فى معية ، وخدمة الأمير ، ويعملون في دوائر الإمارة ... كما كان فى معيته ضابطين عسكريين ؛ أحدهما برتبة بكباشى ، والآخر بوزباش ، وجاوشين من النظامية [1] .

ويحتوى كتاب منشآت فريدون ضمن الرسائل المتبادلة بين الأشراف والسلاطين ، والصدر الأعظم ، والوزراء ، والولاة العديد من الألقاب التى كانت تتغير من عصر إلي عصر .. مع مراعاة التقفية مع اسم الأمير .. وتحرص كل المراسلات على الإشارة إلي إنتسابهم إلي آل البيت النبوي الكريم [2] وتصفهم ببعض الصفات مثل **مَنْ لا يخلف الوعد شريف .. أو ذو القوة والأيد شريف ... أو المحفوف بصنوف** عواطف الملك الآعلى ... » إلى جانب الآلقاب الأخرى .

= يستقبل الظهيرة التي تاتي من مصر ، وحجاج البحر – كما كانت جده مطمعًا للدول الاجنبية التى تحاول الولوج إلي البحر الاحمر ، فلم تر الدولة مفرًا من انشاء قيادة سنجق فى جده ، وربطته بإمارة أمراء مصر في بادئ الامر ، ثم جعلته إمارة عسكرية مستقلة ، ثم ربطت بين جده ، والحبشة ، وكانت تعين على هذه الولاية واليًا بدرجة وزير ، وفى أواخر القرن السابع عشر ربطتها بـ « ساليانه » سنوية . ثم خصصت جزءًا من حاصلات جمرك جدة كمرتب لهذا الوالي . وكانت الدولة تُعين ولاة جده بعد عزلهم آغوات لمكة ، أو در السعادة ، أو شيخًا للحرم في المدينة وذلك لوقوفهم ، ومعرفتهم بأحوال منطقة الحجاز ، وكانت تضع تحت إمرة شيخ الحرم النبوي قوة كاملة السلاح . وكانت الدولة تتكفل بعلوفاتهم . « انظر .، واصف جـ ١ ، ص ٣٠٦) وبعد سنة ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م بعد انفصال الوالى خورشيد باشا ، ألغيت ولاية جده ، وحوِّلت إلى متصرفية ، ثم أُعيدت مرة أخرى ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م وفى سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م أطلق عليها ولاية الحجاز بدلاً من ولاية جده والحبشه واليمن . انظر ؛ مكة أميرلرى س ٢٧ ، حاشية ٢) . المترجم.

(١) مكة مكرمة أميرلرى ، ص ٣٠ .

(٢) فريدون بك منشآتى جـ١ ص٤٤٨ ، جـ١ ص٤ ،٥ . و جـ٢ ص٦ .

أمين الصرة، وموكبها :

اعتادت الدولة العثمانية أن تبعث في شهر رجب من كل سنة وقبيل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، الثالث عشر الهجرى فى شهر شعبان ، من استانبول إلى الحرمين الشريفين مبلغًا من المال ، وكمية من الهدايا تحت مسمىّ الصرة ، وأطلقت على الموظف المكلف بتوزيعها لقب « أمين الصرة . .

وكانت الصرة تُرسل من مصر إلي المدينتين المقدستين حتى سنة (١١٢٦هـ = ١٧١٤م) . ومنذ ذلك التاريخ ، صدرت الآوامر بأن تُرسل من خزينة الحرمين فى الآندرون [١] . وكانت هذه الصرة المرسلة إلي مكة ، والمدينة توزع وفق نظام خاص ، وتُسجل في الدفاتر علي أنها المعلوم أو المعلومية المرسلة باسم الهمايون . .

يتم إلباس أمين الصرة « الخِلعة » فى مقام ، وحضور الصدر الأعظم ، ثم يُبعث به من الباب العالي برفقة (الملخص » إلى السراي ، فيْخلع عليه بخلعة آخرى فى حضور آغادر السعادة وبعدها مباشرة تتم إجراءات إرسال الصرة على النحو التالي :

– خلال السنوات المعتاد إرسال الصرة فيها عن طريق البر ، وكانت تُعد المذكرات والدعوات من طرف آغا دار السعادة إلي الدفتردار ، ورئيس الكتاب ، والنيشانجى = حامل الأختام – من أجل إعداد آلاي الصرة المعتاد خروجها سنويًا من استانبول فى الثاني عشر من شهر رجب ، ثم يقوم معتمد الآغا ، ومعتمد الصدارة بالكتابة إلي مَنْ يهمهم الأمر بهذا الصدد ، ومَنْ يجب تواجدهم في هذا الموكب . .

– تُرسل مذكرة إلي قبطان البحرية لتوفير المَعَدِّيات اللازمة فى مرفئ سيركه جى لنقل الصرة ، وموكبها إلي اسكدار فى اليوم المحدد . . .

– يحضر المدعووين إلي السراي في يوم الموكب ، ويجلسون فى قاعة كاتب آغا

---

(١) . . . « الحكم إلى الوزير يوسف باشا ، وإلي الشام ، والرقة . . وأمير حاج الشام هو ان : إن الصرة المعتاد إسالها ، إلي آهالي الحرمين المحترمين ، تعبيراً عن العواطف الحليةالخسراوية ، كان المعتاد في السنوات السابقة إرسالها من جانب مصر واعتباراً من هذه السنة الميمونة لن تُرسل من جانب مصر ، بل ستسلم إلي أمين الصرة صاحب قدوة الآمائل ، والآعيان محمد زيد مجده بالفعل نقداً علي الوجه المعهود من خزينة الحرمين الشريفين الكائنة فى آعتابنا السعيدة . . سنة ١١٢٦ آواخر رجب) انظر مهمه دفترى = دفتر المهمة ١٢٢ ص ١٢٦) . المترجم .

دار السعادة التي أعدّت في الديوان ، وفيما بين بوابتي باب الهمايون والبوابة الوسطى، . . وعقب وصول آغا دار السعادة ، تُسلم إليه الرسالة التى قد أُعدّت باللغة العربية ، والموجهة إلي أمير مكة المكرمة ، ثم يتم إلباس الخِلَع ، وتوزيعها علي المدعووين من طرف الآغا .

– خلال هذه المدة يقوم كاتب الآغا ، ومفتش الحرمين بختم دفاتر الصرة الهمايونية التى أُعِّدت ، ثم يوقعها الدفتردار بتوقيعه المزيَّل ، ثم يقوم النيشانجي بوضع الطغراء السلطاني على الدفاتر . . وما أن تنتهي هذه الأعمال حتى يعود الدفتردار ، ورئيس الكتاب والنيشانجى ، ويسلمونها إلي آغا دار السعادة الذي يتوجه بها إلى الآندرون . « الداخل » .

– تُمد الموائد إلي المشايخ ، والعلماء ، والأئمة المدعووين جنبًا إلي جنب مع طاقم الصرة . . وعقب الطعام تحضر هيئة الموكب إلي ميدان « قُبة التى » حيث السرادق والصوان المقام ، وينتظرون جميعًا خروج السلطان .

– وسط تصفيق جاوشية ديوان السلطان ، يطل السلطان من باب الآغوات البيض المسمى « باب السعادة » وهو على صهوة جواده الأبيض ، ثم يترجل ، ويجلسه النيشانجي حيث مكانه المعد لذلك . . وخلال هذه اللحظات ؛ وعلى الرغم من أن مربيه قد وقف ممسكًا برسالة الهمايون ، وآغوات الحرم قد اصطفوا وعلى أكتافهم أكياس الصرة . . إلا أن الضباط حملة البُلَط ، من ذوي الذوائب ، يخرجون من باب حرم السلطان ، ويصطحبونه حتى مقامه المقام داخل الصوان . . ويقومون أمام السلطان بَعدُ أكياس النقود ، وتسجيلها فى الدفاتر التى توضع فى الأظرف ، وتختم بالشمع ، وتوضع داخل العلب الإسطوانية المعدنية . ثم يعود آغوات الحرم .

– فى تلك الأثناء . . يستقبل آغا السعادة ، مربى السلطان الذي يكون قد اقترب بالفرمان السلطاني . . فيسلم الفرمان إلي السلحدار الذي يكون قد أخذ مكانه بجوار السلطان . ، فيقدمه بدوره إلي السلطان . وبعد أن يتم توقيعه ، يختم بخاتم السلطان ثم يُسلم إلى آغا دار السعادة ، هو ودفاتر الصرة ، وأكياسها .

– وبينما آغا دار السعادة ، وآغوات الحرم يتجهون بها نحو الخيمة الرئيسية ،

يستقبلهم أمين الصرة .. ويكون في هذه اللحظات قد إرتدى ، هو ورئيس السقاة خلعتيهما . فتُسلم إليه الرسالة السلطانية ، ويتم استعراض أكياس نقود الصرة أمام الخيمة . وخلال هذه اللحظة أيضًا ، يتم إلباس اثنين من المبشرين الخلع الخاصة بهم .

– ثم يُدعى آغا دار السعادة ليرتدى الخلعة الفرائية فى حضرة السلطان ، ويكون في نفس هذه اللحظات معتمد الإسطبل السلطاني يتجول أمام الحضور بالجمل الذي سيحمل المحمل الشريف .. وخلال ذلك يكون المنشدون يرددون المدائح ، والنعوت النبوية ، ويبتهلون بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى .

– يكون السلطان خلال هذه اللحظات قد ألبس آغا دار السعادة القفطان أو الفراء السمورى .. فيتوجه الآغا نحو أمير الاسطبل ، ويتسلم منه مقود الجمل الذى يحمل المحمل .. ويقوم بالطواف أمام الحضور مرتين بالجمل ، ثم يقوم بتسليم المقود الفضي إلى أمين الصرة ، ومقاود مطرزة بالذهب إلي الآغا السقاء ... ثم يتجه ناحية القبلة ، ويسير بضع خطوات تجاه السلطان ، ليقدم فرائض الشكر للسلطان ، ويقبل الأرض بين يديه ...

– عقب ذلك ، يتوجه آغا دار السعادة ، ومعه موظفو الأوقاف ، ويسيرون أمام الجمل الذي يحمل المحمل حتى يكونوا فى مقدمة الموكب .. ويخرجون من البوابة الوسطى ، ويتابعون السير مع الموكب ، حتى المستشفى القريب من باب الهمايون وبعد الدعاء بسلامة الوصول ، يعود آغوات ؛ دار السعادة ، وباب السعادة ، ومعتمد السراى ، ورئيس الخزينة الهمايونية إلي الداخل .. ثم يخرجون من باب الهمايون إيذانًا بالإنصراف .

– أما جَمَلُ المحملِ ، والقافلة التى تحمل أكياس النقود ، والصرة ، فتكون محاطة بضباط بلطجية = « حاملو بلط » السراي ،.. وما أن يخرج موكب الصرة من السراى حتى يتجه نحو مرفئ سَرْكَجي مارًا من تحت قصر أو شرفة الإحتفال ، وهناك في المرفئ ، وبعد الإبتهالات ، والدعوات الصالحات ، تنقل المعديات المحمل ، وكتيبة الموكب إلي أُسكدار . [(١)]

---

(١) انظر ؛ تشريفا تجيلق دفترى ، رقم ٦٧٦ مكرر ، وسراي تشكيلاتي ص ١٨١ ، وتشريفات قديمه ، ص ١٨ .

يمكث أمين الصرة مدة فى أُسكدار ، لإستكمال نواقصه ، ثم يستأذن بالتحرك ، وبعد السماح ، والإذن من السلطان ، تتحرك القافلة . ومن أُسكدار حتى الشام ، تلقى القافلة إحترامًا ، ومساعدة ، وعونًا ، وحفاظًا على سلامتها وأمنها من سائر الوزراء ، والأمراء ، والقواد ، وقادة الصناجق ، والقضاة والمعتمدين ، وقادة الإنكشارية ، ورجالات الولايات التى تمر بها ؛ وذلك عقب تلقيهم الاوامر ، والرسائل والأحكام التى تُبعث إليهم بهذا الصدد . وتامرهم بتامين سلامة الصرة ، وأمينها ، وقافلة الحجاج حتى تصل إلي الشام .

وعقب تحديد اليوم الذي سيتحرك فيه أمين الصرة ، والقافلة من استانبول تُكتب الأوامر إلي متصرف صنجق إزميت الذي يستقبل هو والأهالي الصرة عند بداية حدود المتصرفية .. ويظل هو والخيالة ، والإنكشارية ، وحاملو البنادق في كل الآقضية فى حراستها حتى تم تسليمها إلي آقشهير ، وما أن تصل القافلة إلى هناك حتى تتم عملية التسليم ، والتسلم ، وهم مكلفون باخذ السندات اللازمة .

وما أن يتسلم قائد صنجق آقشهير القافلة ، حتى يتولى هو ورجاله حراستها وتأمينها حتى يُسلمها إلي والي قونية ، ويتسلم مستنداته ، ويعود ، وعلى نفس المنوال تتحرك القافلة في حراسة والي قونية ، أو ملتزمها ، أو مُتسلمها حتى آضنه ، وطوال الطريق ، ينضم إلي القافلة كل الحجاج الذين يتوجهون إلي الحجاز ، لإيفاء فريضة الحج . وهكذا ، تتحرك الصرة ، والقافلة من آضنة إلي حماه ، وتُسلم القافلة التى تسير على هذا المنوال إلي والي الشام في دمشق .

وقبل أن يتحرك أمين الصرة ، وقافلة الحج من الشام بيوم واحد ، يشترك مؤذنو الجامع الأموي ، وكل الجنود والأهالي مع القافلة ، ويتوجهون جميعًا وسط التكبيرات ، والتهليلات المدوية إلى حيث « لواء السعادة » المحفوظ بجوار مقام الصحابي أبى الدرداء ، فينضم حملة اللواء إلي القافلة ، ويتوجهون جميعًا وسط التهليل ، والتحميد ، والتكبير ، والتلبية إلى أن يصلوا إلي قصر الحكم . وفى اليوم التالي يتحرك والي الشام ، وأمير الحاج علي رأس قافلة الحج الشامي متجهين جميعًا إلي مكة المكرمة .

وكان أمير مكة يقوم باستقبال القافلة فى مدائن صالح ، أو المدينة المنورة ، أو في أي مَنْزَل من مَنَازِل الحج ، ويتجهون سوياً إلي مكة . (١)

إعتباراً من الشام ؛ كانت قافلة الحج سواء فى الذهاب أو الإياب تسير وفق نظام ، ونسق معين مع قواتها ، ومدافعها ولا يمكن أن يُسمح بأي خلل من القائمين أو المنضمين إلى القافلة أو من مستقبليها .

يُقدم أمين الصرة الفرمان الذي أحضره – باللغة العربية – وسط مراسم واحتفالات إلي أمير مكة المكرمة ، فيقبل الأمير الفرمان ، ويضعه على رأسه ثم تُقرأ رسالة السلطان علناً فى منى .. ثم تُقدم الدفاتر التى تحتوي على مقدار الصرة ، وكيفية توزيعها إلي الشريف .. وبناءاً على ما هو مذكور فى هذه الدفاتر توزع « المعلومية » على الأهالي تحت نظارة ، وإشراف أمير مكة وشيخ الحرم ، وأمين الصرة ، وقاضي مكة . وتُعاد أنصبة الذين توفاهم الله ، أو الغائبين إلي أمين الصرة ، حيث تُعاد إلي استانبول . أما مستحقات أهل المدينة من الصرة ؛ فتوزع على آهالي المدينة المنورة تحت إشراف وكيل ، أو معتمد الشريف في المدينة ، وقاضيها ، وشيخ الحرم النبوي . وكاتب الصرة ، وتُعلن الحكومة المركزية بالكيفية التى تم بها التوزيع .

يعود أمين الصرة أيضاً مع قافلة الحج ؛ وقد حمل رداً على رسالة السلطان من أمير مكة ، وهدايا قيمة إلي السلطان ، والصدر الأعظم ، والوزراء ، وسائر رجالات الدولة . وما أن يصل إلى مشارف أُسكدار حتى يُعلن عن مقدمه إلى الصدر الأعظم ، الذي يستصدر له الإذن بالدخول من السلطان فيدخل إلي أُسكدار .

يقوم الصدر الأعظم بتقديم رسائل الشريف فوراً ، إلي السلطان ، وتُترجم فوراً فى قلم الديوان الهمايوني إلى اللغة التركية ، ويُعرض الأصل العربي ، مع الترجمة ، وتقرير كامل إلى السلطان ...

كان أمراء مكة يرسلون هداياهم إلي السلطان ، والصدر الأعظم مع واحد من

---

(١) فى آواخر العصر العثمانى تقرر أن يستقبل امير المحامل مكة الشريفة فى المدينة المنورة ، وكانت تُصرف له مبالغ تصل إلي ثلاثين الف قرش كمصاريف للطريق وأجرة الجمال ، انظر ؛ مرآت مكه ، جـ٢ ص٢٩٥ .

أخلص رجالهم ، فيصل إلي الباب العالي مع هداياه .. ويتم استقباله في صالون الإستقبال .. ثم يمثل إلى جوار رئيس الكتاب ، ويُسلم معروضاته ، وهداياه وعقب زيارته إلي كتخدا الصدر الأعظم ، والصدر الأعظم ، يُرسل مع « الملخص » إلى السراي .. وعند استقبال الصدر الأعظم لمعتمد الشريف ، ورجاله ؛ كان يُقدم لهم الشربات ، والقهوة ، والبخور ، ويخلع عليه خلعًا من الفراء ، وعلى أربعة أو خمسة من رجاله بالخلع القيمة . ومن الأصول المرعية أن يقوم آغا دارا لسعادة بالباس معتمد أمير مكة المكرمة ، ومَنْ هم فى معيته الخلع المختلفة .[1]

* * *

(١) التشريفات القديمة ص ٢٧ - ٢٨ .